حال الأطفال

لا يتوقف «داعش» عن إنتاج ما يبرهن على أنه تنظيم أشد وأعتى في تطرفه عن سابقيه من التنظيمات والجماعات الإرهابية على مدار تاريخ المسلمين الحديث والمعاصر. وآخر ما أنتجه داعش هو إنشاء ما يسميهم «أشبال الخلافة»، وهم مقاتلون وانتحاريون من الأطفال، في سابقة تاريخية، إذ لم تستغل منظمة إرهابية أو متطرفة من قبل الأطفال على هذا النطاق الواسع، وفي مثل هذه الأعمال، التي تودي بحياتهم.

فوفق ما يقوله «داعش» نفسه فإن ٨٩ صبيا تتراوح أعمارهم بين ٨ و١٨ عاما لقوا حتفهم في مواقع قتالية، حتى أغسطس ٢٠١٦. وأكثر من نصف القتلى سقطوا على أرض العراق، ولكن أغلبهم من السوريين، أما الآخرون فمن اليمن والسعودية وتونس وليبيا. وهناك عدد قليل من بريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيجيريا.

وبينما تضاعف عدد الأطفال الذي شاركوا في معارك عام ٢٠١٥ ثلاث مرات مقارنة بعددهم عام ٢٠١٤، فإنه بين يناير ٢٠١٥ ويناير ٢٠١٦، لقي ٣٩ ٪ منهم حتفهم في

تفجيرات بسيارات ملغومة و٣٣٪ في معارك. وكان ٦٠٪ منهم تتراوح أعمارهم بين ١٢ و١٦ عاما، بينما ٦٪ تتراوح أعمارهم بين ٨ و١٢ عاماً. ونحو ١٨٪ من الصبية لقوا حتفهم في هجمات كان موتهم فيها محققا.

والسؤال الذي يفرض نفسه في هذا المقام هو: لماذا يلجأ «داعش» إلى تجنيد الأطفال؟ وتتوزع الإجابة على عناصر عدة، يمكن ذكرها على النحو التالي:

١. تعويض نقص المقاتلين في ظل امتداد خطواط المواجهة بين التنظيم وبين مناوئيه، أو الراغبين في استئصاله، لمساحات شاسعة، وعلى جبهات مختلفة. وقد زادت هذه الحاجة مع تصاعد التنسيق الدولي الذي يحري إلى مواجهة شاملة للتنظيم، بعد أن استفحل خطره وطال الجميع. لكن يبدو أن هناك ما هو أبعد من التعويض في هذا الخصوص، إذ تشي التدريبات التي تجري لهؤلاء الأطفال أنهم يُعَّدون بالطريقة نفسها التي يعمل بها المقاتلون من الكبار، الأمر الذي يشكك، ولو قليلا، في أن داعش قد لجأ إلى الصغار كحل أخير بعد مقتل أغلب محاربيه من الرجال في المعارك الضارية المتتالية.

٢. ربط أجيال جديدة بالتنظيم، فأطفال اليوم هم شباب الغد، ويراهن «داعش» عليهم في أن يكونوا مقاتلين مدربين على مستوى رفيع في المستقبل، لاسيما أن حداثة سنهم

تعطي قادة التنظيم فرصة قوية لتنشئتهم على أفكاره ومعتقداته الدينية والقتالية وتصوراته ومدركاته.

ويبدو أن عملية الربط تلك تدور بشكل ممنهج، وفي أماكن عدة، سواء داخل المناطق التي يهمين عليها التنظيم، أو حتى خارجها، والدليل مداهمة قوات الأمن التركية خلال حملة ضد تنظيم داعش الإرهابى فى حى أولوجانلار بالعاصمة أنقرة لمبنى مؤلف من خمسة طوابق، يعرفه الناس على أنه مكتبة، ويستخدمه التنظيم الإرهابى فى تدريب الأطفال. وتبين أن نحو ٣٠ طفلا من بينهم ٢٥ فتاة تتراوح أعمارهم بين ٩ و١٧عاما يبيتون فى شقق هذا المبنى لتلقى التدريبات على يد عناصر من «داعش».

٣. يتيح الأطفال للقادة الميدانيين في التنظيم فرصة للتمويه على أعدائهم وخداعهم، إذ يسهل استخدام الصغار في بعض العمليات الانتحارية النوعية دون أن يلفتوا الانتباه، ويثيروا الشكوك. وقد لا يستمر هذا التمويه طويلا، فأحيانا يجد الطفل الانتحاري نفسه في حاجة إلى أن يظهر تماما لأعداء «داعش»، وهي مسألة تجسدها ظاهرة «الانغماسيون»، حيث ينخرط الأطفال أو الصبية بكل كيانهم في عملية قتالية خلف خطوط العدو، ويفتحون النار بلا حذر ولا تحسب، فتكون النتيجة أن يلقون مصرعهم في النهاية.

٤. ربط أسر الأطفال بالتنظيم، فقد انتقل بعض المنتمين له إلى الأرض التي يسيطر عليها التنظيم مع زوجاتهم وأطفالهم. وهناك من تزوجوا بعد وصولهم وأنجبوا أطفالا. ولعل حالة الفرنسيين في صفوف داعش تقدم مثلا ناصعا في هذه الناحية، فهناك ٤٠٠ طفل فرنسي موجودين في صفوف داعش، ثلثاهم ذهبوا مع الوالدين، والثلث ولدوا هناك، وحين يشبون عن الطوق سيجدون أنفسهم بين الدواعش، لينخرطوا طواعية في صفوفهم.

فبعض هؤلاء الأطفال لا يؤخذون إلى التدريب العسكري عنوة، إنما يتم الاتفاق مع أسرهم على مقابل مادي لقاء انضمامهم إلى ميليشيات داعش، وبذا فهم في نظر التنظيم وإدراك ذويهم مرتزقة، وهذا مسلك انتهجته التنظيمات المتطرفة من قبل في ميادين قتال عديدة. وبعض الأسر ترسل أطفالها راضية لأنها تعتقد في أن هذا جهاد في سبيل الله.

وفي حال إجبار بعض الأطفال على الانضمام لداعش فإن التنظيم يربط ذويهم عنوة به، ويخضعهم له، الأمر الذي يعيد إلى الأذهان ظاهرة «الرهينة» التي سادت في اليمن قرونا، ولا تزال تمارس إلى يومنا هذا. حيث كان بعض الحكام يأخذون أبناء شيوخ القبائل رهائن ليضمنوا خضوعهم، إذ إن تمردهم معناه ببساطة تعريض حياة أولادهم للخطر. ويشبه هذا أيضا ما كان يفعله العثمانيون في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، حين كان يتم خطف الأطفال، وضمهم

إجباريا إلى صفوف الإنكشارية، حيث يتلقون مناهج تجعل ولاءهم للدولة، وتدريبات عسكرية على مختلف فنون القتال.

٥. يُعطي توظيف صغار السن في العمليات الميدانية فرصة للتنظيم كي يسوق بعض صور ضحايا حروبه من الأطفال في دعايته الرامية إلى تشويه خصومه. وأحيانا يقدم هؤلاء إلى الرأي العام الدولي بوصفهم من المدنيين الذي أسقطهم أعداء داعش. لا يعني هذا بالطبع أن الضحايا المدنيين بالفعل ليس من بينهم أطفال، لكن يتم خلط الأمور على النحو الذي يخدم الدعاية الداعشية، التي ثبتت احترافيتها وفاعليتها على مدار السنوات الفائتة.

٦. وعلى خطى الدعاية أيضا، يساعد توظيف «داعش» للأطفال في عمليات التنظيم في حصده نقاطا إضافية في الحرب النفسية التي يشنها ضد مناوئيه، إذ يقول لهم عبر الصور الملتقطة والمبثوثة لهؤلاء الصغار، وهم يحملون أسلحة من مختلف الأنواع، ويتدربون على عمليات انتحارية، أو حتى يحضرون دروس تلقينهم بعض تصورات التنظيم وأفكاره، بأن «داعش» متجذرة في الأرض التي يسيطر عليها، وأن مقاتليها يتلاحقون جيلا وراء جيل.

وأقوى مثل يُضرب في هذا الصدد هو الشريط المصور الذي صدر في ٢٧ أغسطس ٢٠١٦ عن المكتب الإعلامي التابع لداعش بمدينة الرقة السورية، والذي أظهر خمسة أطفال

بـزي عسـكري كامـل يقومـون بإطـلاق النـار علـى رؤوس خمسـة أشـخاص قـال التنظيـم بأنهـم مـن الأكـراد، في إشـارة لوحـدات حمايـة الشـعب، الـتي تقاتـل التنظيـم في عـدد مـن الجبهـات.

وقـد حـرص التنظيـم علـى أن يقـول بشـأن المعدمـين إن الولايـات المتحـدة الأمريكيـة قـد أوعـزت إليهـم بالتحـرك ضـد داعـش، تحـت وعـود بإقامـة دولـة كرديـة، لكـن التنظيـم «تصـدى لهـم واسـتنزف قواهـم وقـوى التحالـف الـذي سـاندتهم» حسـب تعبـيره.

وإذا كانـت هذه هي الأسـباب أو الدوافـع التي تجعل «داعش» توظـف الأطفـال في عملياتـه القتاليـة، بـلا ورع ولا رحمـة، فمـاذا عـن النتائـج المترتبـة علـى اسـتفحال هـذه الظاهـرة؟ يمكـن ذكـر بعـض هـذه النتائـج فيمـا يلي:

أ. الخطـر العـام المرتبـط بتعـرض الأطفـال لمحن قاسـية مـن هذا النـوع، وهـي مسـألة أُعـدت بشـأنها أبحـاث بـكل اللغـات والثقافـات، في مجـال التأثير النفسـي للحـروب على الأطفال.

وهنـاك مـا يبـين قسـوة التجربـة الـتي يمـر بهـا أطفـال «داعـش» فهـا هـو ضابـط عراقـي يـروي واقعـة القبـض علـى طفـل انتحـاري في كركـوك شمـال العـراق قائـلا: «كان يصـرخ ويقـول: ابتعـدوا عـني سـأنفجر»، فيمـا أظهـر «فيديـو» كيـف كان الطفـل، الـذي تلقـى تدريبـات لسـتة أشـهر، يرتعـش أثنـاء تفكيـك الحـزام الناسـف عـن جسـده.

وهناك الطفل أسيد برهو، الذي سلم نفسه للشرطة قبل تنفيذ عملية انتحارية، وكذلك فعل طفل آخر في الفلوجة، فيما هرب طفل أيزيدي من معسكر تدريب لداعش في الموصل، وراح يقول في خوف: «دربونا على أن الذبح يجب أن يتم من أسفل الحنجرة».

وربما لهذه المخاوف فإن نسبة فشل العمليات التي كُلف أطفال بتنفيذها أكبر من مثيلتها التي نفذها بالغون.

ب. غسل دماغ صغار بالفكر الداعشي مما يجعلهم يتبنونه كبارا. ففي فصول تعليمية يتلقى أطفال داعش دروسا حول أنواع الأسلحة، وأصناف الفقه والفكر المتشدد التي يتبناها التنظيم. ويتم تجميعهم ليروا مشاهد قطع رؤوس وإعدامات ينفذها جلادون لا تزيد أعمارهم عن ١٢ عاما.

في هذه المدارس يُعزل الأطفال عن ذويهم، وتُطلق عليهم كُنى معينة يحملها الكبار عادة على غرار (أبو بكر البغدادي ـ أبو حمزة المصري ـ أبو محمد المقدسي) ثم يتم توزيعهم على ثلاثة مستويات من التعليم والتدريب: ديني ينصب بالأساس على عملية الطاعة والجهاد، وعملي وهو بدني قاسي، وفيه يتعرفون على أنواع مختلفة من الأسلحة ويتدربون عليها. ونفسي، سواء برفقة «المحتسبين» في الأسواق والشوارع والأماكن العامة، أو من يقيمون الحدود في الساحات.

ويترتب على هذا خلق جيل يحمل أفكار الإرهاب وتدابيره، بما يجعله يشكل خطرا محتملا على مختلف الدول، لاسيما إن عادوا إلى بلدانهم الأصلية، مثلما سبق أن جرى مع «الأفغان العرب» قبل ربع قرن.

obeikan.com